

النصير

لشاعر الهند «نابنة» أنشا طاغور

بقلم الأستاذ عبدالموجود عبدالحافظ

خيال جميل ويحلم بسحر عينيها وقسامة وجهها
ورشاقة قوامها ... كان قد صنع لها في خياله
تمثالا يفوق تمثال فينوس إلهة الجمال . وكان
يتمثل في خياله الخصب منظر قدميها
الصغيرتين الرقيقتين ، يتمثلهما تسيران على
الفراش ، فيتمنى أن يسيرا على قلبه . وكم
تمثل له أن يضع خلاخلها الرنانة ذات
الصوت العذب ، على مذبج قلبه حيث يصوح
أحانها الشجية وأنغامه المذبة ، على أنغامها
الساحرة الجميلة وهي تزل في قدميها

إن (شيكار) كان يؤمن بشخصية
ذلك الطيف الذي يتحرك خلف الستائر .
طيف ذلك المخاوق الذي يطرب لسماع
أشعاره والذي يحس الشاعر أن حركاته
ورنات خلاخله تغنى على وقع دقات قلبه ..
كان للأميرة وصيفة تدعى «مانا جارى»
تمر كل يوم على منزل الشاعر في طريقها
إلى الحديقة ، وعند عودتها يكون الطريق
قد أصبح خلوا من الناس بعد أن يسدل
الليل أستاره على المدينة ، تدخل حجرة
الشاعر في جراحة وشجاعة ، ثم تجلس على

كان «شيكار» شاعر الملك «ناران»
شاعرا مجيدا ذا عبقرية قوية ، فإذا ألقى
إحدى مقطوعاته الشعرية ، انبثت نفثاته
الساحرة من حنجرته الرنانة القوية ،
متصاعدة إلى شرفات البهو الملكي الفسيح ،
فيسرى سحرها مخترقا الستائر ، فتطرب له
السامعات هناك . كان هناك خلف الستائر
حيث يصل صوته القوي إلى ذلك المكان
الذي لا يقدر على الوصول إليه أو الدنو منه
أحد ، حيث كان يتألق خلف تلك السجف
الحريرية المذهبة شخص الأميرة «أجينا»
ذلك الكوكب اللامع المهيمن على مصير
الشاعر والسيطر على عواطفه . وكم كان
الشاعر يتمنى أن يراها ثم يفارق الحياة .
وكثيرا ما تحل طيفها يتحرك خلف الستائر
ولكن عندما يعود إلى نفسه يرى أنه يسبح
في واد من الخيال . يوم النصر الأكبر عنده
ليس هو إعجاب الملك أو الناس بشعره ، وإنما
هو سماعه صوت الأميرة

كان كثيرا ما يتخيل عالم الأميرة إذا
سمع صوت خشخشة من بعيد فيسبح في

ينظم شعره ويتغنى به ، والملك يقبل على
سماعه بكل قلبه ، والناس يهتفون للشاعر
محين مشجعين ، و (مانا جارى) الوصفية
توافيه كل ليلة في حجرته عند عودتها من
الحديقة ، والشاعر يعيش سعيدا قانعا بالطيف
الذى ينحرك خلف السجف في الشرفة
ويطرب للنغمات التى ترسلها الخلاخل الذهبية
الصغيرة وكأنها أجراس تدق داخل قلبه .

بينما الحياة تسير على هذا التوالى ، إذ
ظهر شاعر جديد ، تحدى من لقيه في طريقه
من كبار الشعراء وهزمهم وتغلب عليهم .
وأخيرا استطاع أن يصل إلى قصر الملك
(ناران) . فلما مثل بين يديه أجاد في مدحه .
فرحب به الملك وأكرمه أعظم إكرام ؛
لأن مدحه صادف هوى فى نفس الملك .
ولما عرف (بندارك) أنه تقرب إلى قلب الملك
قال : إني أطلب يا مولاي ، معاولة أكبر
الشعراء وأعظمهم ؛ فسرعان ما اتجه تفكير
الملك إلى شاعره العظيم (شيكار)

ولم يكن (شيكار) قد خاض من قبل
عمار المساومات ، فهو لا يعرف كيف تقوم
الحرب بين الشعراء ولا كيف يستعراوآرها .
فلما أعلمه الملك برغبة (بندارك) الشاعر
الجديد ؛ بات ولم ينمض له جفن فى تلك
الليلة وقد تمثل له الشاعر الجديد المنافس

طرف البساط وتأخذ فى الحديث معه ، ذلك
الحديث الذى تبدل جيذا كبيرا فى أن يكون
على هوى الشاعر ورغبته ، كما كانت تحاول
أن تكون لطيفة جميلة ، فتبدل عناية فائقة
فى اختبار لون قناعها ، وكذلك فى طريقة
رشق الزهرة فى شعرها ، وكانت تتمعد أن
راها الناس عند حولها إلى حجرة الشاعر ،
كما أن الشاعر بدوره لم يحاول إخفاء هذه
القبابلات عن الناس ، بل كان يصرح ، أنها
صدر سرور عظيم له

كان شعر (شيكار) ينال إعجاب الناس
جميعا من أقل إنسان فى المملكة إلى الملك
نفسه ، لأنه كان يمزج الحقائق بالخيال فى
شعره فكانت تسمع شعره يتردد على شفاه
الجميع ويتغنى به الجميع . فإذا حف النسيم
بالشجر وأحدث صوتا ضعيفا هينا ، أو إذا
ظهر القمر مضياء متلألئا ، سمعت أنغام
الشاعر تنبعث من كل مكان فى طول البلاد
وعرضها من مختلف الناس وعلى جميع
الألسته ، فتسمعونهم يغنون فى النوارب فى
الأنهار وفى الشرفات فى القصور والطرفات ،
بل يخيل لك أن الأشجار والحيطان وغيرها
تغنى كلها بهذا الشعر الجميل الذى يخرج من
شفاه القلوب

ومرت الأيام فى سعادة وغبطة ، الشاعر

بصوت كأنه الرعد ، وقد انتفخت أرداحه وارتفع رأسه عاليا وتمدد صدره المريض المتلي ، وكانت كمانه تهدير كأنها الأمواج الصاحبة ، فبدأت تؤثر في نفوس الجماهير المستمعة ، وسرعان ما أخذت هذه الجماهير بالمهارة الفائقة والمعاني البديعة المختلفة التي نظمها في اسم الملك (ناران) . ومما زاد في دهشة قدرته على تضمين أياته كل حرف من حروف اسم الملك بطرق متعددة ، ولم يقتصر الإعجاب على الجماهير بل إنه حاز رضاء الأساتذة المثقفين الذين جاءوا من بلاد بعيدة ، فرفعوا أيديهم بحين وهتفوا للشاعر معبرين عن إعجابهم . وأتجه الملك نحو شاعره (شيكار) وألقى عليه نظرة تساؤل ، فأجابه (شيكار) بأن رفع إليه عينيه المغممتين بالأم المرير واليأس القاتل . ثم وقف شاحب الوجه زائغ البصر وقد استولى عليه الحجل الشبيه بنجل العذارى . وتهامس الناس ، أين هذا القوام الهزيل من ذلك العملاق الضخم ؟ وبدأ (شيكار) يتكلم وهو مطرق الرأس خافت الصوت ، حتى أن كمانه الأولى لم يسمعها الكثيرون . ثم أخذ يرفع رأسه في بطل ومشقة ، وكان يرفع تبعا لذلك صوته الذي ارتفع حلوا جليا نحو السماء كأنه شمع من النور ، فأبجته إليه العيون . وبدأ يروي قصة حياة الأسرة المالكة

بقوامه الضخم وأفقه الأفنى ورأسه المرتفع في أفقه وخيلاء ، تمثل له في ليلته هدمه وهو يسول ويحول فأقلق راحته وأقضى مضجعه .

ولما أصبح الصباح توجه (شيكار) إلى الميدان ، فرآه مكتظا بالجماهير ، ورأى غريمه يجلس منتصبا في اعتداد وقوة ، تخفق قلبه بشدة . ولكنه تقدم من غريمه وحياء باسماء رفيقة والحناءة خفيفة في احترام ووفاء . فرد (بندارك) هذه التحية بإتناء بسيطة من رأسه في غير أكثرات ثم دار برأسه نحو أنصاره وأقسم لهم باسماء ذات معنى

ورفع (شيكار) بصره نحو الشرفة العالية التي تتدلى عليها الستائر تخفق قلبه وحياء محبوبة في نفسه قائلا : إذا انتصرت اليوم في هذه المعركة فسوف يتجدد اسمك

وظهر الملك مقبلا في ثيابه البيضاء الواسعة ، فأشار أحد القاعين بالأمر ، فدقت الطبول ووقفت الجماهير المحتشدة تدعو للملك بالنصر وطول القاء . حتى إذا وصل إلى عرشه استوى عليه ، وبعد برهة قصيرة ، هب « بندارك » قائما فساد السكون في القاعة الفسيحة وأصبح الناس وكأن على رؤوسهم الطير . ثم أخذ يرسل مديحه للملك

ثم وجه السؤال مرة ثانية بصوته الجمهوري المرتفع قائلاً : هل هناك ماهر أعظم من الكلمات

وعال يصرفها حوله في تعاطف وكرم ؟ فلم يجرؤ أحد على أن ينحده ، فجلس في مكانه في طاء ، وكأنه أسد أحمر عبي فريسته ثم أتى عليها في أكلف واحدة وهتف له الحاضرون في إعجاب عظيم ولكن الملك ظل صامتاً ساكناً من الدهشة

وهذا أحسن الشاعر (شيكار) أنه ليس شيئاً مذكوراً بجانب هذا العلم الفياض والحجة القوية والمقدرة الفائقة . ثم عاد الملك نحاسه وشبهه الحاضرون

ولما كان اليوم التالي عاد الشاعران إلى الميدان وازدحت القاعة بالناس وأخذ الملك مكانه في صدرها ، ثم أوماً إلى شاعره (شيكار) فقام وتوسط القاعة وأخذ يتعنى بذلك اليوم الذي سمع الناس فيه أصوات موسيقى الزام مقيلة مع هواء غابة « فريدا » الهادئة ولم استطع أحد رؤية الموسيقى ولا مصدر الموسيقى ودهشت الراغبين اللائق كن في الغابة واستولوا على اللارين نوع من الخوف لأنها كانت تبدو لهم كأنها تنبعث من كل شيء ، من الجبال والحقول والوديان ومن الطرق الظليلة ومن الخضر الزاهية

متمشياً معها من أقدم المصور إلى الوقت الحاضر ، وهو في كل ذلك يشيد بعظمتها الخالدة وكرمها الزائد ويطولتها الفذة إلى أن قال :

مولاي ! قد يكون هزمت في سوغ الكلام ، ولكني منتصر على شخصكم الكريم . ثم عاد إلى مكانه وجلس وهو يهز كأنه القصبة في مهب الريح

وتأثر السامعون لهذا القول واعبرورفت عيونهم بالدموع وتصاحبوا معجبين بهذا الوفاء العظيم حتى اهتزت جدران القاعة الحجرية

عند ذلك انتصب (بيدارك) قائماً في عنف وقوة ، منجدها هذا الشعور الذي أظهره الجمهور وألقى السؤال الآتي على مسامع الحاضرين :

— هل هناك ماهر أعظم من الكلمات ؟ فساد السكون أنحاء القاعة ، ولما لم يجد أحداً قد تحرك حتى الشاعر (شيكار) ابتسم ابتسامة خبيثة ، ثم أخذ يثبت في براعة وفصاحة (أن في البدء كانت الكلمة وأن الكلمة كانت عند الله ---) وأخذ يؤيد أقواله بآيات كثيرة من الكتب المقدسة ويشيد صرحاً عالياً بقيمة الكلمة . بل إنه جعلها أعلى وأعظم من كل مافي السماء وكل ما على وجه الأرض

الحب واسم تلك الحبيبة اللذين جعلهما موضع قصيدته . ثم أدار بصره نحو أصدقائه وأنصاره وأبسم لهم ، وقبل أن يترك مكانه طلب من غريمه في تحدي ، أن يذكر هذين الاثنين - وساد المكان سكوت عميق ، وانجحه الناس بأنظارهم نحو (شيكار) ولما لم يجدوه قد تحرك ، هب أنصار (بندارك)

يعدونه أعظم المدح ، فتبعهم الباقون الذين خدعهم مارأوا من هزيمة (شيكار) ونصر (بندارك) فإذا كان الأول صاحب حق فإن الثاني قوى التفكير ، سريع البديهة ، وقد خيل للشعب أن (شيكار) بالنسبة (لبندارك) ما هو إلا طفل صغير لا يستحق إلا اللعاب ، أين (شيكار) من ذلك المارد الجبار الذي يتغلب على كل عقبة تمرض طرقاته بقوة تفكيره وغزارة علمه ، كما خيل لهم أن أسرار شاعرهم ما هي إلا كلام يرص وفي غاية السهولة فلا يستعصم عميقة التفكير ولا هي جديدة في شيء ، كما لم تكن تحتوي على شيء من العلم أو الفلسفة

ودهش الملك ونظر إلى شاعره نظرات الغيظ والحنق غله يستطیع أن يبذل جهده ليرد على (بندارك) تحديه فقد كان الملك يحب شاعره ويصطفيه ، ولكن (شيكار) لم يفعل شيئاً ولم يتحرك من مكانه ، فاعتناظ الملك وهبط من عرشه والنضب بملأ عينيه

والحشائش النامية . ونسى الناس أنفسهم فماشوا في هذا الجو ، ولم تستطع النسوة إدراك كنهنها ، وامتلات نفوسهن رغبات ولكنهن يحزن عن التعبير عنها فاعرو وقت عبورهن بالدموع اللؤلؤية ، وتمنين لو أن حياتهن انتهت في هذه اللحظة على عتبة الأبدية

وعاب الشاعر عن نفسه ونسى سامعيه كما نسي أنه بنارل خصمه له عنيدا ، فقد كان في هذه اللحظة يعيش وحيدا مع أفكاره التي كانت تتراحم وتتصارب في ذهنه فتحدث حوله حفيفا كحفيف ذلك الثوب الذي تحفيه تلك الستائر المسدلة على الشرفة ثم تنفي (أغنية الناي) وكان يتمثل في مخيلته صورة طيف وأصوات ضئيلة تهمس من بعيد

ولما انتهى من إنشاده عاد إلى مجلسه ، وقد استولى على المكان سكوت رهيب ، كما استولى على السامعين سرور عميق مصدره ذلك الشعور المبهم الذي تولاهم ، فلم يستطيعوا تحديده أو معرفة كنهه ، وقد استغرقوا في هذا السرور حتى أنهم نسوا أن يقرظوا الشاعر الذي جلب إليهم ولم يلتبه الناس لأنفسهم إلا عندما انتصب ذلك العملاق « بندارك » واقفا وتقدم أمام عرش الملك وطلب من (شيكار) أن يذكر اسم ذلك

لم تصبري معدى ، فلو أنى كنت قطعة من
الذهب لخرجت من أتونك بعد هذه الحياة
الطويلة ، أصفى معدنا وأكثر لمعانا .
ولكنى كنت جيفة تنه طالما وطشها الأقدم
فلمّا ألقيت فيك لم يبق فيها إلا حقنة من
رماد أذرته الرياح عند أول هبوبها

وعندما انتهى من حرق أوراقه ، فتح
لواقد عرقته على مصاريعها وأحضر ما عنده
من شموع وأوقدها كلها ، ثم تفر الورود
والأزهار البيضاء على فراشه وبعد أن انتهى
من كل ذلك خلط عصارة بعض النباتات
السامة ببعض العسل ، ونجّح المزيج في
هدوء كأنه يتناول كأساً من الخمر المعتقة . ثم
تعدّد على فراشه في سكون وراحة ، ولكنه
ما كاد يضع رأسه على مخدته حتى سمع
صوتاً ظنه من أثر السم الذى نجّعه ، سمع
ربّين خلخال ذهبية في خارج منزله ، تحت
نافذته . وهب النسيم يحمل إلى أنفه رائحة
ركية طالما استنشقا في أيامه الماضية ، فتمتم
في وهن وضعف هل يعقل أن تكون هي ؟
« ربما تسكون قد أخذتها الشفقة بحادسها فأتت
إليه في النهاية لتراه ولتسبح منها بصره قبل
أن يغمض إلى الأبد » وما كاد يتم كلامه
حتى سمع صوتاً رقيقاً على باب عرقته يقول :
ها أنا ذى جئت لأقف إلى حوارك

يا شاعري الحبيب

وكل جارحة فيه ، وأخذ قلاذنه اللؤلؤية
وزين بها جيد (بندارك) وعند ذلك دوى
السكان بالتصفيق الذى لا حده

في هذه اللحظة الرهيبة من حياة
الشاعر (شيكار) طرق سمعه صوت ضئيل
لخلخال ذهبي رنان وحفيف لرداء حريري
بتحرك ، فطفرت من عينه دموع ساخنة ،
لأنه لن يسمع هذا الصوت مرة أخرى فقد
حرم الحضور إلى هذا المكان إلى الأبد

وافق الشاعر من غيبوبته فرأى
السكان خالياً ، فتجامل على نفسه ونهض
من مقعده وخرج بجر قدميه جراً . كانت
هذه الليلة سوداء حالكه الظلام ضل فيها
الشاعر طريقه إلى بيته . فلما وصله بعد طول
عناء ، أخذ يجمع مخطوطاته وأشعاره الأولى
التي كاد يسي ما خطه فيها ، وأخذ يعث
بصفحاتها ويقرأ ما كتب فيها ، فحيل له
أنها ألعاب صبيانية لا قيمة لها وأنها
نافهة عديمة المعنى لا تستحق الرقاع التي
كتمت عليها

وكما قرع من قراءة صحيفة مرقها
وألقى بها في إناء أسامة يحوى ناراً ملتهبة
ويقول : إليك أيتها النار يا فتاة العزيزة ،
إليك يا من كنت تشتعلين في فؤادى طيلة
هذه الأعوام الحافلة . إليك أيتها النار يا من